بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم: دراسة منهجية مقارنة

د. زهراء خالد سعد الله العبيدي

مقدمة

إن البحث عن مفاتيح الوحدة القرآنية للسورة والسور من القران الكريم لا يتم بدراسة المعاني والتراكيب في حدود الجمل وحدها، وإنما بدراسة ذلك كله في سياق وحدة السور وارتباط الآيات وتناسب المعاني والوقائع والذي يسعى علم المناسبة والتفسير الموضوعي للبحث عنه لإظهار حكمة توقيفية الآيات والسور والرد على حملات الطعن الموجهة إليه من جهة الإعجاز بنظمه وترتيبه.

وعلم المناسبة من أهم الموضوعات، والبحث في التفسير الموضوعي من أهم البحوث، لشرف هذه العلوم التي موضوعها القرآن الكريم وآياته وسوره، فهما جديران بالبحث والتأليف والتأصيل لحسم إشكاليات تفكك النظم، بالعودة إلى القران الكريم من خلال السياق والسابق من الآيات فيرد الجزئي إلى الكلي، والكثرة إلى الوحدة، في نظم بديع الترتيب والإعجاز.

وقد أولى علماؤنا الكرام علم المناسبة عناية فائقة في كتب التفسير وعلوم القرآن والإعجاز ووقف أصحاب الأشباه أو الوجوه و النظائر على كل كلمة لها وحدة موضوعية جامعة لمقاصد القرآن وأهدافه ضمن بواكير التفسير الموضوعي فنبهوا إلى مواضع الربط بين الآيات والسور والبحث عن سر ترتيبها، وقد اتسع البحث للأخذ بالمنهج التنظيري الوصفي المقارن لكل من لوني التفسير (علم المناسبة والتفسير الموضوعي).

وهذه دراسة جديدة في تفسير القرآن الكريم سعت إلى بيان الفهم المتجدد للآيات القرآنية عبر مقاصدها من خلال إبراز مصطلحي (علم المناسبة) و(التفسير الموضوعي) باعتبارهما من مصطلحات القرآن الكريم.

ومن أهداف البحث الكشف عن الإعجاز اللغوي والتفسيري للقرآن الكريم وإثبات وحدته من ترابط موضوعاته التي لا يرقى لمستواها بشر ولا يجيدها بيانه، وهذه الدراسة المنهجية المتعمقة تسعى لأنْ تحقق للمنهج القرآني أهدافه في ارتباط آياته وسوره وتصريف مقاصدهما بما يلائم الواقع في كل عصر.

المبحث الأول

علم المناسبة والتفسير الموضوعي

أولا: علم المناسبة

١. أولية علم المناسبة نشأةً وتصنيفاً

إنَّ من الخصائص التي انفرد بها النظم القرآني عن غيره من النظم تناسب آياته وسوره، كونهُ وحدة موضوعية جامعة لأهدافه ومقاصده، ومن يتدبر خصائص هذا النظم يبحث عن سر ترابط الآية بالآية والسورة بالسورة ضمن علم من علوم القرآن الكريم وهو (علم المناسبة)*، الذي يوقفنا على بيان الصلات بين الآيات بعضها ببعض، وبين السور جميعاً على وجه من التعالق والتآلف؛ لإثبات حكمة توقيفية الآيات والسور وأنها وحي من الله تعالى.

فعلم المناسبة إذاً من العلوم القرآنية التي تعني لغةً واصطلاحاً '' الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه في كتاب الله ـ تعالى. وتعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها''[١].

ويتعدى البحث فيها إلى بيان العديد من نظوم (نظم) الآيات من تقديم وتأخير وحذف وذكر وتناسب في الصيغ والفواصل، والألفاظ والمعاني، وغير ذلك مما له تعلق بمقتضيات أحوال التركيب والترتيب، وإدراك المقامات والأحوال المقتضية لها على ما قرر ذلك البقاعي[٢] بأن جعل جلّ موضوع (التناسب) بلاغي مهمته إيجاد ''علل الترتيب والتركيب''.

وهذا العلم له جذور تأصيلية تعود إلى عصر النبي ـ أول المفسرين للقرآن الكريم ـ وعنه أخذ السلف ثم الصحابة والتابعون وأوائل علماء الدراسات القرآنية[٣]، وكل من بحث فيه كان إجابةً عن الأسئلة التي أُثيرت حول سلامة تناسب النظم القرآني، والرد على

---

١ (*) لقد كتبت الباحثة تمهيداً موسعاً لهذا العلم تناول مباحث عدّة، دلالات الترتيب والتركيب في سورة البقرة، دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة، د. زهراء خالد: ١١ ـ ٤٨.

مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم: ٨٥.

٢ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي: ١ / ٦.

٣ وينسب السبق في تسميته علماً إلى أبي بكر النيسابوري (ت ٣٢٤ هـ)، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٢ / ١٨٠.

حملات الطعن والإلحاد بما زعموه إخلالاً بالتناسب[1].

٢. جهود المفسرين في بيان أنواع المناسبات القرآنية

إنّ علم المناسبة لم يكن بِدْعاً من العلوم القرآنية، بل هو حصيلة ما أفرزته عقول الأولين من إشارات ولمحات عابرة عن سرّ ترابط الآيات والسور وترتيبهما[2]، عَنى به المفسرون قديماً وحديثاً للوقوف على مقاصد السور الكريمة ومعرفة الوحدة الموضوعية لكلٍ منها؛ ووقفوا على كثير من مواضع الربط بين الآيات والسور، والبحث عن سرّ ترتيبها، وأوردوا الكثير من اللطائف التناسبية في هذا المقام، وقد تعددت اتجاهات البحث عندهم ضمن ثلاثة أنواع من المناسبات:

الأول: المناسبات بين الآيات

وهناك من المفسرين من اهتم به في أثناء تفسيره، وكانت عنايتهم به تقوم إمّا على بيان المناسبة بين الجُمل، أو بين الآيات، واستنبطوا وجوه مناسبات دقيقة، منهم الإمام أبي السعود (ت ٩٨٢ هـ) في تفسيره (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، والشوكاني[3] (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسيره (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)، والآلوسي (ت ١٢٧٠ هـ) في تفسيره (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)، وأبي الطيب صديق بن حسن القنوجي البخاري (ت ١٣٠٧ هـ) في تفسيره (فتح البيان في مقاصد القرآن)، وغيرهم.

الثاني: المناسبات بين السور

ووجه البحث فيه كان قائماً على بيان الارتباط بين فاتحة السورة وخاتمة ما قبلها، وفاتحة السورة وخاتمتها، وفاتحة السورة وفاتحة ما بعدها، وخاتمة السورة وفاتحة ما بعدها، على وجه من التعالق اللفظي والمعنوي، وأبرز من عنى به، وأفرده بالتصنيف أبي جعفر بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ) صاحب (البرهان في ترتيب سور القرآن)، واهتم به في تفسيره أيضاً الشيخ أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، في (البحر المحيط)، ثم ألّف برهان الدين البقاعي (ت٨٨٥هـ) كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) وهو أشهر كتاب

---

[1] فقد نفى هذا العلم الدراسات التجزيئية للقرآن الكريم، وعمل على دراسته ضمن وحدة الموضوع والهدف، ودقة التناسب في النظم.

[2] دلالات الترتيب والتركيب: ١٤.

[3] على الرغم من إنكاره لعلم المناسبة إلاّ أنه يقف في تفسيره على مناسبات عدّة، لأن هذا العلم حقاً على المفسر التفكر والتأمل فيه.

لبيان هذا النوع من المناسبات. ثم أولى السيوطي (ت ٩١١ هـ) اهتماماً بتناسب السور في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور)، ومن المحدثين محمد عبده (ت ١٩٠٥ م) الذي جمع آراءه تلميذه محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ) في (تفسير المنار)، والمراغي (ت ١٣٦٥ هـ) في تفسيره (تفسير المراغي)، وغيرهم.

الثالث: المناسبات بين الآيات والسور

وقد جمع المفسرون بين مناسبات الآيات والسور في تفاسيرهم لتكون عنايتهم قائمة على بيان مظاهر الارتباط بين السور والآيات، وهذه هي الوحدة الموضوعية الجامعة لأهداف القرآن والمستكملة لمقاصد التفسير، ومن بين تلك التفاسير وأهمها (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) للبقاعي، و(قطف الأزهار في كشف الأسرار) للسيوطي، و(إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لأبي السعود (ت ٩٨٢هـ)، و(تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) لعبد الحميد الفراهي الهندي (ت ١٣٤٩ هـ)، و(التحرير والتنوير) لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ هـ)، و(الأساس في التفسير) لسعيد حَوى (ت ١٩٨٩م)، وغيرهم.

تلك نبذة سريعة وموجزة لعدد من كتب عن المناسبات بين السور والآيات من المفسرين قديماً وحديثاً، وهي تشمل لطائف تناسبية عدّة تكشف دقة هذا العلم وحظّه من تلك الدراسات القرآنية، لتؤصل مباحثه تدويناً وتصنيفاً في كل عصر من العصور الذي أُلّف فيها.

وقد خلص البقاعي في هذا النوع من الدراسات القرآنية إلى أنّ نسبته من علم التفسير كنسبة علم البيان إلى علم النحو[١]، وهذا العلم له قواعد في التفسير ومنهج في الرأي المحمود، فهو يُعد نهجاً يجب على المفسر أن ينهجه في تفسيره[٢]، ويستلزم معرفة واسعة باللغة العربية يكون مبناها الاستنباط والتحليل والتفسير[٣]، مع الوقوف على طرائق النظم ترتيباً واتساقاً.

١ نظم الدرر: ١ / ٦.
٢ التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي: ١ / ٢٧٧.
٣ دلالات الترتيب والتركيب: ٤٤.

ثانياً: التفسير الموضوعي

١. التفسير الموضوعي، تعريف وتأصيل

يُطلق التفسير الموضوعي ويراد به: العلم الذي يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر[١].

ولم يظهر هذا المصطلح إلاّ في القرن الرابع عشر من الهجرة، عندما قُررت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر، إلاّ أنّ لبنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأولى كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله[٢].

وعنى الفقهاء من بعده بجمع آيات الأحكام المتعلقة بقضية محددة أو موضوع واحد، لكن كل ذلك لم يلفت الأنظار إلى الروابط المتينة بين ذلك الموضوع وآيات وسور الكتاب الكريم الأخرى، كما أنّ تفسير القرآن بالقرآن لم يُؤدِ إلى بروز نظرية واحدة تجمع القرآن الكريم تحت وحدة واحدة[٣].

وبواكير التفسير الموضوعي في تاريخ الإسلام كانت عند الجاحظ حين كَتَبَ عن النار في القرآن الكريم، ثم كتب ابن تيمية ــ رحمه الله . رسالة عن لفظة (السنة) في القرآن الكريم، ثم نضج على يد أصحاب الوجوه والأشباه، ومن أوائل من كتب في هذا العلم:عكرمة مولى ابن عباس (ت: ١٠٥ هـ)، أبو العباس المبرد (ت: ٢٨٦هـ)، وكتابه (ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد)، وابن سلام (ت: ٢٠٠هـ)، وكتابه (التصاريف)، الحكيم الترمذي (ت: ٢٥٥هـ)، وكتابه (تحصيل نظائر القرآن)، أو الأشباه والنظائر في القرآن الكريم الذي يدرس مفردات القرآن الكريم في كل وجوه استعمالها في إطار القرآن نفسه؛ بالرغم من كل تلك الجهود، إلاّ أنّ المنهج الموضوعي ما كان واضحاً إلى درجة يمكن فيها التنظير العلمي له[٤] إلى أن ظهر جيل المفسرين[٥] الذين عنوا في تفاسيرهم بالوحدة الموضوعية للقرآن الكريم إلاّ أنَّ

---

١ مباحث في التفسير الموضوعي: ١٦ ـ ١٧.

٢ م. ن: ١٦ ـ ١٧.

٣ الوحدة البنائية للقرآن المجيد، طه جابر العلواني: ٧٠.

٤ المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم وتأويله، عبد الرحمن الحاج ابراهيم، رسالة المسجد، العدد (١)، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م: ٦.

٥ من هؤلاء المفسرين: الزمخشري في (الكشاف)، والرازي في (مفاتيح الغيب)، ومحمد عبده في (تفسير المنار)، وسعيد حوى في (الأساس في التفسير)، وسيد قطب في (في ظلال القرآن)، ومن المحدثين: محمد درّاز في (النبأ العظيم)، ومحمد الغزالي في (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم)، وأمين الخولي في (من هَدْيِ القرآن).

جهودهم لم تكن نظريات علمية تتحدث عن النظم والتناسب ووحدة الموضوع أو السورة في فهم القرآن حتى ظهرت دراسات مستقلة حديثة[١] العهد نسبياً فوضعت قواعد لهذا المنهج وخطت بالتفسير في ضوئه.

٢. أنواع التفسير الموضوعي

بعد التقديم التاريخي الموجز لمصطلح (التفسير الموضوعي) يمكن تحديد ثلاثة نماذج للتفسير الموضوعي هي:

١. تتبع الكلمة أو المفردة القرآنية ودراستها ضمن السياق القرآني مع ملاحظة اشتقاقاتها وتصريفاتها المتعددة، واستخراج الدلالات والحقائق القرآنية منها، ويُطلق على هذا اللون من التفسير (التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني)[٢]، ومصطلحات القرآن الواردة فيه كثيرة أمثال: الجهاد، الزواج، النبوة، الظلم..الخ، ويرى الشيخ محمد الغزالي بأنه نظر جزئي إلى القرآن ولا يدعو إليه كثيراً، لأنه لا يظهر تكامل القرآن في ترابط آياته وسوره ويصطلح عليه بـ (التفسير الموضعي)[٣].

٢. وحدة المعاني والموضوعات التي يتناولها النص القرآني، ويعني به تتبع موضوع معين في القرآن الكريم بأساليب متنوعة وتجميعها من سور متعددة، مع الإحاطة بطرائق المفسرين في عرضها، واستنباط عناصرها من القرآن نفسه، وهي محاولة لتقديم التناول القرآني لتلك المعاني أو الموضوعات[٤]، أمثال: (علاج القرآن لمشاكل الأسرة)، و(حقوق الأبناء على الآباء)، وهذا النهج التفسيري لم يتم بنيانه، ولم تقم أركانه، ولم ينح نحوه أحد من السابقين، بل لم يتعرض له من اللاحقين إلاّ القليل[٥]، وغالبها دراسات معاصرة للقرآن

---

١ إذ بدأت أصوله تترسخ، ومناهجه تتضح منذ نصف قرن من الزمن، وأقر تدريسه في الجامعات، وأصبح يشغل حيزا في الدراسات القرآنية المعاصرة، من ذلك انطلاق (مشروع التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم) الذي تبنته جامعة الشارقة وسعى لتنفيذه رئيسا (مصطفى مسلم) مع مجموعة من الباحثين، وقدم الكتاب منهجا محدد في التفسير الموضوعي لسور القران الكريم =: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، د. مصطفى مسلم ج ١/ أ–ب – المقدمة.

٢ وهذه تسمية الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي =: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: ٥٩.

٣ التفسير الموضعي: يتناول الآية أو الطائفة من الآيات في شرح الألفاظ والتراكيب والأحكام، =: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي: ٥.

٤ والبحث في هذا النوع أعم وأشمل، وميدانه أوسع، ومعالجته للواقع ومشكلات الأمة والمجتمع أوضح =: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: ٦٢.

٥ التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، الدكتور أحمد السيد الكومي، والدكتور محمد أحمد يوسف القاسم: ١٤.

الكريم[1].

٣. النوع الأخير تحيط فكرته بالسورة القرآنية الواحدة، وتتجلى مهمة الباحث فيه إلى الكشف عن المقصد العام للسورة بعد الوقوف على أسباب نزولها وترتيبها وأسمائها ومكيّها ومدنيّها، والبقاعي أفرد لهذا النوع من التفسير كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وقد قدّم سيّد قطب نظرية رائعة، وتجربة فريدة للوحدة الموضوعية للسورة القرآنية في تفسيره (في ظلال القرآن).

وهذا النوع الثالث من التفسير الموضوعي وثيق الصلة بعلم المناسبة، وذهب أحد الباحثين المحدثين[2] إلى أنّه لابد عند تفسير السورة تفسيراً موضوعياً من الإلمام أولاً بعلم المناسبات بين الآيات في السورة الواحدة، وبين السور بعضها ببعض، فجعل علم المناسبة جزءاً من التفسير الموضوعي وليس العكس.

المبحث الثاني

علم المناسبة والتفسير الموضوعي

أولاً: مواطن الافتراق ومواطن الاتفاق

انطلاقاً من الخلط السائد بين التفسير الموضوعي وعلم المناسبة لدى عدد من الباحثين المعاصرين ممن عنوا بالموضوع، لابد من التمييز بينهما اصطلاحاً ومنهجاً في التفسير القرآني.

١. مواطن الافتراق

أ. التفسير الموضوعي: لون من ألوان التفسير لم يولد مصطلحه بكثرة، إلاّ في العصور الأخيرة تلبيةً لحاجات المجتمع ومشكلاته، والتي لم تُعالج إلاّ بإبراز آيات متعلقة بها من المنظور القرآني، ثم تنوَّعت طرائق البحث فيه ليقف عند كل سورة من سور القرآن الكريم ويحدد أهدافها الرئيسة بغية تفسيرها وإجلاء وحدتها الموضوعية، وبذلك يتحدد مفهوم الوحدة الموضوعية بأنها

---

[1] كما في كتاب (الضالون كما يصورهم القرآن)، عبد المتعال الجبري، و(الصبر في القرآن الكريم)، الدكتور يوسف قرضاوي =: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: ٦٢ . ٦٣.

[2] وهو مصطفى مسلم في كتابه (مباحث في التفسير الموضوعي): ٥٧.

(نظرية)[1]، نشأت عنها مدارس التفسير الموضوعي[2].

ب. علم المناسبة: بدأ شذرات على لسان السلف في معرفتهم المناسبات بين الآيات وانتهى علماً عند العلماء يكشف الروابط والصلات بين الآيات والسور، وهنا تكمن أهميته في كونه مبحثاً من مباحث إعجاز القرآن ودعامة من دعائم تفسيره يدعو إلى ارتباط آي القرآن وسوره بعضها بالبعض الآخر، والوقوف على ما بينها من مناسبات دقيقة لإثبات حكمة توقيفية الآيات والسور، وما يستتبع ذلك من استخراج المعاني والتماس لطائف النكات التي لا يتوصل إليها إلاّ بمعرفة الهدف العام للسورة ووجه مناسبتها لما قبلها وما بعدها.

ج. إنّ اقتران مصطلح (التفسير الموضوعي) بالتفسير الأدبي الفني جعل المصطلح ينصرف إلى مسميات عدّة منها: (الوحدة الموضوعية) و(الوحدة العضوية) و(الوحدة البنائية).

د. أما علم المناسبة: فقد استقر مصطلحه كعلم من علوم القرآن، جمع فيه العلماء ما استنبطوه من مناسبات الآيات ثم أضافوا إليه مناسبات السور، وهذا ما جعله أساساً وركناً للمنهج الأدبي في تفسير القرآن وهو (التفسير الموضوعي) القائم على مقصد السورة الأساسي ومراعاة وحدة موضوعها.

هـ. كثير من المفسرين ممن وقف على معالم ارتباط الآيات والسور حمل تصنيفه مصطلحي (المناسبة والتناسب) كأبي جعفر بن الزبير (ت ٧٠٨ هـ) في كتابه (البرهان في تناسب سور القرآن)، والعالم برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، والإمام جلال الدين السيوطي (ت ٨٨٥ هـ) في مؤلفاته (تناسق الدرر في تناسب السور) و(مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)، والشيخ الغماري (ت ١٤١٣ هـ) صاحب (جواهر البيان في تناسب سور القرآن) وغيرهم كثير ممن اهتم بهذا العلم في منهجه التفسيري فذكر بأنها (مناسبة) أو (تناسب).

---

[1] وهو ما اصطلح عليها الشيخ سعيد حوى في مقدمة تفسيره الذي قال فيه " إنّ الخاصية الأولى لهذا التفسير وقد تكون ميزته الرئيسية أنه قدّم لأول مرة . فيما أعلم . نظرية جديدة في موضوع الوحدة القرآنية "، ١/ ٢٣، ويمكن عدّ تفسيره (الأساس في التفسير) تطبيقاً عملياً لفكرة الوحدة الموضوعية.

[2] وقد تناول الإمام الشيخ محمود شلتوت تفسير القرآن بطريقة لم يسبق إليها بالدراسات القرآنية ففسر الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم على طريقة بيان الفكرة العامة للسورة وعرض المواضيع التي تعالجها، ينظر: كتابه (تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى).

و. لم يظفر التفسير الموضوعي بمصنف خاص عند المفسرين القُدامى والمحدثين حمل العنوان نفسه بل ورد عندهم إشارات إلى بعض أهداف السورة وتوخي أوجه الربط بينها وبين الآيات في شروحاتهم التفسيريةنناسق الدرؤر في تناسب السور) الذي اختصره في كتابه (مراصد الإطلاع ف ٥ي تناسب المقاطع والمطالع) ، والشيخ الغماري (ت[١])، ثم انتهج جماعة من الباحثين المتأخرين نهجاً يستند إلى استجلاء الوحدة الموضوعية للسورة والآيات، وبيان الوشائج العضوية التي تربط الآيات في موضوع واحد من السورة والسور وإن كانت محاولاتهم لهذا اللون من التفسير امتداداً لمن سبقهم، فأفردت مؤلفاتهم ودراساتهم تحت عنوان (التفسير الموضوعي) و(الوحدة الموضوعية) ومن هذه المؤلفات: (مباحث في التفسير الموضوعي) لمصطفى مسلم، و(دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) لزاهر بن عواض الألمعي، و(الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم) لمحمد محمود حجازي، و(التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) لأحمد السيد الكومي ومحمد أحمد يوسف القاسم، و(التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق) لصلاح عبد الفتاح الخالدي.

ز. علم المناسبة تثبت به حكمة توقيفية الآيات والسور على وجه من التآلف والتعالق وأنها وحي من الله تعالى، فيتلاحم المكي مع المدني لإعجاز في الترتيب.

ح. التفسير الموضوعي يمكن أن تفسر الموضوعات في ضوئه على طريقة الترتيب النزولي[٢] ولا يقف في بحثه على بيان مناسبة الآيات ببعضها وفق الترتيب المصحفي.

٢. مواطن الاتفاق

وبناءً على ما تقدم نجد أنّ هناك نوعاً من التداخل بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي من خلال مواطن الاتفاق الآتية:

أ. كلاهما ضابط من ضوابط التفسير؛ تثبت بهما الوحدة القرآنية، والإعجاز القرآني.

---

١ منهم على سبيل المثال: محمد مصطفى المراغي (تفسير المراغي)، ومحمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا (تفسير المنار)، وسعيد حوى (الأساس في التفسير) وغيرهم.

٢ دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زاهر بن عواض الألمعي: ٢٦.

ب. علم المناسبة وثيق الصلة بالتفسير الموضوعي فكلاهما يقف على أهداف السورة وأغراضها.

ج. ارتباط علم المناسبة والتفسير الموضوعي بالأنواع الأخرى من التفاسير: كالتفسير التحليلي والمقارن والإجمالي [١]، ويتعاضد الجميع في إثبات أهمية دراسة القرآن الكريم، والكشف عن مُراد الله ـ تعالى.

د. اتفاق منهجية كل منهما في تعيين أسباب النزول والوقوف على مقاصد الآيات ومعرفة مكيّها ومدنيّها ثم تناولها بطريقة تحكم الروابط بينها وبين أغراضها بما يحقق الانسجام فيها وضمن مواضعها من السورة.

هـ. اتجاه كل من التفسيرين (التناسبي والموضوعي) في تحديد معالم السورة إلى تقسيمها مقاطع وفقرات، واستنباط مقاصد الآيات القرآنية في ضوئها.

وينتهي بنا الأمر إلى القول إنَّ أغلب من بحث التفسير الموضوعي منذ انطلاقته الأولى وحتى نضجه على أيدي المفسرين قد تناولها بأنها التفاتة قرآنية تستجلي الوحدة الموضوعية للسورة في القرآن الكريم، وفاتهم أن يبرزوا الفرق بين التفسير الموضوعي للسورة القرآنية والمناسبات بين الآيات والسورة، إذ يتناول الأخير: الربط الجزئي بين كل آية وآية وسورة وسورة. أما التفسير الموضوعي فيقف على تحديد عناصر السورة القرآنية بحيث أنّ كل عنصر يناسبه مجموعة من الآيات قد تختلف في موضوعاتها الجزئية، لكنها تنتظم في سلك واحد تحت عنصر عام.

وغاية الأمر أنّ بيان مقاصد السور قد بُحث سابقاً في علم التفسير ضمن علم المناسبات[٢]؛ثم طرأ حديثاً على التفسير مصطلح (التفسير الموضوعي) ليشمل هذا المضمار[٣].

---

١ يقف المفسرون عند التفسير التحليلي على بيان معنى الألفاظ في الآية، وبلاغة التركيب والنظم، وأسباب النزول، واختلاف المفسرين في الآية، وذكر حكم الآية وأحكامها ويزاد عليها تفصيل أقوال العلماء في مسألة فقهية أو نحوية أو بلاغية كلٌّ حسب اهتمامه، كما يهتمون بذكر الروابط والمناسبات بين الآيات. أما التفسير الإجمالي فمراده بيان الآيات القرآنية وعرض معانيها إجمالاً مع بيان غريب الألفاظ والربط بين المعاني في الآيات ووضعها ضمن عباراتها لتوضيح مقاصدها. أما التفسير المقارن فيهتم باستعراض ما كتبه المفسرون في الآية أو مجموعة الآيات المترابطة والموازنة بين آرائهم، وعرض استدلالاتهم: مقدمة في التفسير الموضوعي، محمد عبد العزيز الخضري، مجلة البيان، العدد (٦٤)، السنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٣: ١٠١.

٢ مقاصد السور وأثر ذلك في علم التفسير، صالح عبد العزيز آل الشيخ، شريط مفرّغ.

٣ دلالات الترتيب والتركيب: ٢١.

ثانياً: خطوات منهجية وضوابط علمية في علم المناسبة والتفسير الموضوعي

وبعد تناول التحليل المفهومي لمصطلح كل من (علم المناسبة) و(التفسير الموضوعي)، لابد من تقديم أهم الضوابط المعتبرة في منهجيتهما:

١. خطوات منهجية علم المناسبة[١]:

و. بيان فضائل كل سورة، ومكيّها أو مدنيّها، وعدد آيها.

ز. بيان مقصود كل سورة ثم علاقة اسمها بالأهداف والمقاصد.

ح. مناسبة السورة للسورة التي تليها.

ط. المناسبة بين فاتحة السورة وختامها، وختام ما قبلها.

ي. المناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة ما بعدها.

ك. مناسبة إجمال السورة لتفصيل ما بعدها، وتفصيل السورة لإجمال ما قبلها.

ل. التناسب بين موضوعات السورة ومحورها (أي الموضوع الذي ترتكز عليه السورة).

م. التناسب بين القصص إن وجدت وبين موضوع السورة.

ن. المناسبة تشمل الوحدة الموضوعية لكل سورة؛ فضلاً عن وحدة موضوعات السور.

س. هناك مناسبات عامة لكل سورة ومناسبات خاصة، منها ما هو ظاهر ومنها ما هو خفي، وأغلبها تناسبات يحكمها الذوق تتراءى للمجتهد في التفسير القائم اجتهاده على التدبر؛لأنّ النظم الترتيبي عند البقاعي أعلى من النظم التركيبي[٢]، فيدعو إلى المناسبات الذهنية وليس القواعدية.

ع. تناسب السور في مضامينها، فقد تكون إحدى السور مقابلة للأخرى على ما ذكر السيوطي أنّ سورة الكوثر تقابل ما قبلها من سورة الماعون، وقد تتناسب السور لاتحاد الموضوع، وهناك من السور مما يكون معترضاً بين السور الأخرى

[١] وقد اهتدينا في بيان هذه الخطوات المنهجية مما وقف عليه المفسرون في بيان المناسبات بين الآيات والسور مع ما كُتب مستقبلاً عن علم المناسبة تصنيفاً وبحثاً، وقد اجتهدت الباحثة في تطبيق تلك المنهجية على سورة البقرة في كتابها (دلالات الترتيب والتركيب في سورة البقرة. دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة).

[٢] التناسب القرآني عند الإمام البقاعي، مشهور موسى مشاهرة: ٥٨.

كما يذكر السيوطي أنّ سورة المائدة وإن جاءت بعد سورة النساء من حيث الترتيب العثماني ومع وجود المناسبة القوية بينها وبين النساء، إلاّ أنّ لها اعتلاقاً بسورة البقرة وآل عمران[1]، وهذا مالا يتحقق في (التفسير الموضوعي) كوجه من وجوه المناسبات.

ف. تناسب الآيات فيما بينها تناسباً ترتيبياً وتركيبياً، لأن مهمة علم المناسبة البحث عن مواطن انقطاع الآي، وإيجاد العلاقات التي تحكم المناسبات بين الآيات.

ص. التناسب الدلالي بين الآيات، ويتناول:

١. التناسب في الآية الواحدة ويشمل:

- ❑ التناسب بين صدر الآية وخاتمة ما قبلها.
- ❑ التناسب بين صدر الآية وما قبلها من الآيات.
- ❑ التناسب بين جزء الآية وصدرها.
- ❑ التناسب بين ختام الآية وصدرها.
- ❑ التناسب بين ختام الآية ومضمون ما قبلها.
- ❑ التناسب بين ختام الآية وختام ما قبلها.

٢. التناسب بين الآيات في مضامينها ويتناول:

- ❑ إجمال وتفصيل.
- ❑ دليل وبرهان.
- ❑ سبب ونتيجة.
- ❑ احتجاج.
- ❑ تكميل وتوضيح.
- ❑ سؤال وجواب.
- ❑ تأكيد.
- ❑ اعتراض.

[1] تناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي: ٩٦.

ق. التناسب في النظم المعنوي والتركيبي [1] للآيات ويشمل:

٣. التناسب في الألفاظ والمعاني.

٤. التناسب في الصياغة والبناء.

٥. التناسب في التقديم والتأخير.

٦. التناسب في التعريف والتنكير.

٧. التناسب في الحذف والذكر.

٨. التناسب في التصوير والتناسق الفني ويتناول:

- ❑ تناسب هيئة التشبيه.
- ❑ تناسب هيئة الاستعارة.
- ❑ تناسب الأضداد.
- ❑ تناسب التقابل.
- ❑ تناسب الفواصل.
- ❑ تناسب التكرار.

ر. يتعاضد علم المناسبة مع علم أسباب النزول في الكشف عن مُراد الله تعالى في كتابه العزيز وكلاهما يسعى لتخصيص عام أو تقييد مطلق أو تبيين مجمل[2].

٢. خطوات منهجية للتفسير الموضوعي[3]:

١. تحديد الهدف الأساسي في السورة.

٢. إبراز عناصر سورة من السور للموضوع المبحوث فيه وتقسيمها وتبويبها، مثال: (القيم في سورة الكهف)، مع بيان الوحدة الموضوعية لكل تقسيم.

٣. الوقوف على الهدايات المستنبطة من كل مقطع وتشمل:

- ❑ القضايا العقدية.

---

[1] وهذه مباحث لغوية يتناولها علم المناسبة كونها مطلباً بلاغياً يدعو إليه سياق الحال والمقام، ومهمة علم المناسبة هي إيجاد " علل الترتيب والتركيب " في النص القرآني بوصفه بناءً لغوياً مترابط الأجزاء ومتلاحم المعاني.

[2] دلالات الترتيب والتركيب: ٤٥.

[3] اجتهد الدكتور مصطفى مسلم في وضع (منهج البحث في التفسير الموضوعي لسورة واحدة) مباحث في التفسير الموضوعي ص٤٠.

- ❑ ب- الأحكام الشرعية.
- ❑ ج- الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية.
- ❑ د- الجوانب التربوية [١].

٤. دراسة علاقة كل المقاطع بهدف السورة بدءاً بالمقدمة وانتهاءً بالخاتمة.

٥. التعرف على أسباب نزول السورة ومكان نزولها وترتيبها بين سور القرآن وعلاقة كل ذلك بعنوان السورة.

٦. على الباحث في هذا اللون من التفسير أن لا ينطلق في دراسته لموضوع السورة من آيات لم ترد فيها، بل يكون منطلقه آيات ومباحث ومقاطع السورة، وتُذكر الآيات الأخرى على سبيل الاستشهاد والاستئناس والتوكيد لا التأصيل.

٧. استخلاص أهم حقائق السورة، والدلالات التي تقررها، والإشارة إلى أبعاد السورة الواقعية، وكيفية معالجتها لمشكلات الإنسان المعاصر.

والضوابط المعتبرة في تفسير السورة والكشف عن مقاصدها وأهدافها (٢) ضمن (علم المناسبة) و(التفسير الموضوعي) هي:

١. احتياجها إلى مزيد فكر وتأمل لتباعد الموضوعات الجزئية فيها والاهتداء إلى حكمها لإدراك مقاصدها [٣].

٢. عدم الخروج عن قواعد التفسير التي يضعها المفسر أمامه للوصول إلى تفسير صحيح الغايات والأهداف، فيجعل لكل سورة موضوعاً واحداً تدور حوله لا يتناقض مع التفسير [٤].

٣. إثبات صحة الآراء في إدراك المحاور بغية تحديد زاوية رصدها من غير تعارض أو تصادم [٥].

٤. مراعاة خصائص القرآن الكريم البيانية والأسلوبية والتعبيرية، وخصائصه الفكرية

---

١ التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، د.مصطفى مسلم: ج١ /ب المقدمة.

٢ (٢) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: ٨٥.
لأن محلها التفسير، وأمرها قائم على الاجتهاد.

٣ نظم الدرر: ١ / ١٤، ١٥.

٤ الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية: ٣٩ . ٤١.

٥ مباحث في التفسير الموضوعي:٤٣- ٤٤.

والموضوعية، ولا يجوز له مخالفتها أو الخروج عليها [1].

وبعد هذه النظرة الكلية لكل من مصطلحي (علم المناسبة) و(التفسير الموضوعي) ومنهجية كلّ منهما في تفسير كتاب الله ـ تعالى ـ يمكن القول إنَّ القرآن الكريم لا ينضب إعجازه، وله في التفسير مناح تعرب عن مقاصده وأهدافه وتعالج كثيراً من مشكلات الواقع بهديه واستنباطاته، وماً من نهج تفسيري إلاّ استكمل به سابقه وأعانه في الجدة والاجتهاد للكشف عن روعة إعجاز القرآن في وحدته الموضوعية.

نتائج البحث

- علم المناسبة من علوم القرآن الكريم، موضوعه إظهار المناسبات بين الآيات والسور على وجه يتبين به النظم بين كل آية وآية وسورة وسورة، وأهميته تكمن في إثبات حكمة توقيفية الآيات والسور وأنها بوحي من الله تعالى.
- طرأ على التفسير حديثًا مصطلح التفسير الموضوعي، وهو يشمل القضايا التي يتناولها القرآن الكريم حسب مقاصده ويعالج بها الواقع.
- قلّة الدراسات والمصنفات في التفسير الموضوعي قياساً بالتفسير الموضعي التحليلي.
- المناسبة تؤكد الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم من خلال وحدة موضوعات السورة والسور، فهي إذاً وثيقة الصلة بالتفسير الموضوعي، الذي يقع ضمنها.
- إنّ نظرية الوحدة الموضوعية التي نشأت عنها مدارس التفسير الموضوعي جاءت متأخرة عن علم المناسبة الذي استقر مصطلحاً من مصطلحات علوم القرآن الكريم.
- تردد مصطلحا (الوحدة الموضوعية) و(التفسير الموضوعي) عند من صنّف فيهما من المتأخرين، وأنهما ذوا دلالة واحدة عند من كتب فيهما.
- لكل من التفسيرين (التناسبي والموضوعي) مواطن اتفاق وافتراق، إذ كلاهما ضابط من ضوابط التفسير في بيان الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، مع فارق دقيق يعني به علم المناسبة وهو إثبات توقيفية الآيات والسور، وعناية

[1] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: ٨٩.

التفسير الموضوعي بالترتيب النزولي في أغلب بحثه أوترتيب موضوعاته.

- كشف البحث من الخطوات المنهجية لعلم المناسبة أنها حجة عقلية على المفسر في بيان النظم الترتيبي والتركيبي للآيات والسور، وتتحقق فيه كل المباحث اللغوية، فهو ثمرة علوم كثيرة مفادها تدبر خصائص النظم القرآني.
- وكشف البحث من الخطوات المنهجية للتفسير الموضوعي أنّه لا غنى عنه لأي مفسر في جعل المعاني والأهداف القرآنية واحدة على نسق من الترتيب الموضوعي الموافق للسياق، وعدم إغفال ارتباطه بالواقع حسب المقاصد القرآنية، فهو منهج دعوة وصلاح للموضوع المبحوث فيه.
- إنّ النص القرآني في إعجازه بنظمه لا يمكن تناوله بمعزل عن سياقه الداخلي. ترابط العلاقات . ضمن علم شريف هو علم المناسبة، ولا يبتعد أيضاً عن سياقه الخارجي المقام في إظهار ربط السابق باللاحق من الآيات على نسق موضوعي مترابط ضمن (التفسير الموضوعي)، وصولاً للغايات والمضامين القرآنية.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب المطبوعة

الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥م.

الأساس في التفسير، سعيد حوى، ط (١)، دار السلامة، القاهرة،١٤١٠ هـ، ١٩٨٩م.

تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى)، محمود شلتوت، ط (٨)، دار الشروق ، بيروت، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١م.

التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، دراسة نظرية تطبيقية مرفقة بنماذج ولطائف التفسير الموضوعي، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط (٢)، دار النفائس ، الأردن، ١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٨م.

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، د.مصطفى مسلم، ومجموعة من الباحثين، ط(١) جامعة الشارقة، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. احمد السيد الكومي، ود. محمد أحمد يوسف القاسم، ط (١) ، القاهرة، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢م.

التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، بيروت، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧م.

التناسب القرآني عند الإمام البقاعي، مشهور موسى مشاهرة، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٤٢٢ هـ، ، ٢٠٠٠م.

تناسق الدرر في تناسب السور، المسمى (أسرار ترتيب القرآن)، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار النصر ، القاهرة، ١٩٧٦م.

دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زاهر بن عواض الألمعي، ط (٤) ، الرياض، ١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧م.

دلالات الترتيب والتركيب في سورة البقرة ، دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة، د. زهراء خالد سعد الله العبيدي، ط (٢)، مؤسسة الواحة للنشر والتوزيع، العراق ، الموصل، ١٤٣٣ هـ، ٢٠١٢م.

مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ط (٢)، دار القلم ، دمشق،١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م.

نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، ط (٧)، دار الشروق ، القاهرة، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥م.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين بن الحسن بن إبراهيم بن عمر البقاعي، (١)، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ، قطر، ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩م.

الوحدة البنائية للقرآن المجيد، طه جابر العلواني، ط (٢)، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة، ١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨م.

الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، رفعت فوزي عبد المطلب، ط (١)، دار السلام ، القاهرة، مصر، ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦م.

ثانياً: البحوث والدوريات المنشورة

مقاصد السور وأثر ذلك في علم التفسير، د. صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، شريط مفرغ.

مقدمة في التفسير الموضوعي، محمد عبد العزيز الخضري، مجلة البيان ، الكويت، العدد (٦٤)، ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٣م.

المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم وتأويله، عبد الرحمن الحاج ابراهيم، رسالة المسجد العدد(١)، ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣م.